مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: البنية الجمالية في فكر التوحيدي القبح الجمالي أنموذجاً
اسم الكاتب: د. ياسر عبد الرحيم
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2812
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 01:35 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

البنية الجمالية في فكر التوحيدي
القبح الجمالي أنموذجًا

د. ياسر عبد الرحيم*

الملخص

حاول هذا البحث دراسة البنية الجمالية في فكر التوحيدي، واختار ظاهرة القبح الجمالي أنموذجًا لتحليل ظاهرة الضحك كونها قيمة جمالية، فالقبيح المذموم في الواقع يغدو جميلًا عندما تتجلى فيه دقة الوصف والتصوير، وبراعة التعبير، وحسن انتقاء ألوان اللوحة (رسمًا أو شعرًا أو نثرًا...)، والتعبير عن القبح فنٌّ غايته الجوهرية الإضحاك بوساطة الفن.

والتوحيدي ذو ثقافة موسوعية، وتمثل مؤلفاته ثقافة عصره، ويمكن عدّها وثيقة تحتوي على صورة عريضة للحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية التي شهدها عصره، فقد اشتغل بالأدب والفلسفة والاجتماع، وامتازت كتاباته بالبحث والتحليل والدقة، وهو يمثل ثقافة عصره الجمالية، ورؤيته للجمال جزء من رؤية مجتمعه، وأفكاره الجمالية لا تمثل رؤيته الفردية فقط، وإنَّما تمثل أبرز المفاهيم الجمالية التي يمكن رصدها في ذلك العصر، إذ إنَّ الفكر الجمالي عند الفرد جزءٌ من الفكر الجمالي السائد في المجتمع، والعلاقة بينهما جدلية قائمة على التأثر والتأثير، والنشاط الجمالي والعلاقات الجمالية في الواقع أمران يخصان الإنسان وحده كائنًا اجتماعيًا على الرغم من أنَّ طبيعة الجمال مسألة مختلف فيها اختلافًا كبيرًا، وإذا كانت هناك آراء تتحدث عن إحساس الحيوانات ببعض أنواع الجمال الحسي مشاركة بذلك الإنسان، فإنَّ صنع الجمال وإبداعه وقفٌ على الإنسان وحده.

الكلمات المفتاحية: البنية، الجمالية، التوحيدي، القبح، الضحك، القبح الجمالي.

* جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

The Aesthetic Structure in ALTawhidi Thought: Aesthetic Ugliness as A Pattern

Dr. Yasser Abdel Rahim[**]

Abstract

This research examines the aesthetic structure in ALTawhidi though, The phenomenon of aesthetics ugliness is selected as a model for analyzing the phenomenon of laughter because it is an aesthetic value. In fact, the rebutted ugly becomes beautiful when it reflects the accuracy of the description and depiction, the craftsmanship of the expression and the good selection of colors (whether it is in a drawing, a poem or a piece of fiction ...)

The essence of laughter is mediated by art, it may beautify the ugly, and it may become beautiful. The ugliness becomes beautiful when it is embodied in a work of art. The aesthetic ugliness is illustrated by analyzing the phenomenon of laughter as an aesthetic value .The meaning of humor, cynicism and laughter derives from the field of philosophy that makes the ugly beautiful.

Al Tawhidi has encyclopedic knowledge, his works represent the culture of his age and thus may be considered a panoramic view of the culturall social and political scene in his own time .His aesthetic view is not his own individual view only, but also part of the views and thoughts of his society.

Key words: structure ،aestheticism, Al Tawhidi, ugliness, laughter, aesthetic ugliness

[**]University of Aleppo, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

مقدمة:

أبو حيان التوحيدي، أديب وحكيم وفيلسوف وصوفي، لم تصل إلينا معلومات كافية عنه، وما نعرفه في هذا المجال أنَّه عاش في القرن الرابع الهجري، وأنَّه كان سيئ الطالع في حياته وبعد وفاته، عاش حياته فقيرًا بائسًا مهملًا، يشكو الفقر والعوز، ولم يلقَ إلا الإهمال من الوزراء الذين اتصل بهم، وطارده سوء الطَالع بعد وفاته فأهمله المؤلفون حتى جاء ياقوت الحموي فنوّه بذكره في كتابه معجم الأدباء، ولفت الأنظار إليه، وعرف له فضله ومكانته، فوصفه وصفًا يدلُّ على تقديره لعلمه، فقال فيه: "إنَّه فرد الدنيا الذي لا نظير له، ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومكنةً"، ومع ذلك لم يستطع ياقوت تقديم ترجمة لحياته ممَّا أدى إلى ظهور آراء عدّة حولها، ولم نجد لولادته مصدرًا يحددها، فقد نشأ في بغداد، ثم انتقل إلى الرَّي، ومات عام 414هـ في شيراز عن عمر يناهز القرن[1].

إنَّ مطالعة كتب التوحيدي[2] تبيّن أنَّ هذا المفكر كان فنانًا وناقدًا وفيلسوفًا، ولعله من أوائل مَن أسهم في بلورة الفكر الجمالي العربي مأخوذًا عن آراء معاصريه، ومدبجًا

---

[1]– لمزيد من التوسع انظر:

– الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق: الدكتور أحمد فريد الرفاعي، القاهرة، 1936م، ص: 5/15.

– إبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب 35، ص: 12 وما بعد.

– البهنسي، عفيف: الفكر الجمالي عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997م، ص: 15.

– الصديق، حسين: فلسفة الجمال ومسائل الفن، دار القلم العربي ودار الرفاعي، حلب، 2003، ص: 65– 69.

[2]– ليس سهلًا أن نحصر آثار التوحيدي، ذلك أنَّ أكثرها قد أحرقه سنة 400هـ على أنَّ ياقوت الحموي في معجم البلدان قد أورد ثبتًا بأسماء بعض آثاره. انظر: البهنسي، عفيف: الفكر الجمالي عند التوحيدي، ص: 20؛ ومن آثاره:

–الصداقة والصديق: ويتحدث بأسلوب شيق عن مفهوم الصداقة والصديق، ولكن بروح نقدية تعكس يأسه من الأصدقاء، ولذلك عرّف الصديق قائلًا: "الصديق إنسان هو أنت إلا أنَّه بالشخص غيرك"، وقال: "إنَّ أطول الناس سفرًا، من سافر في طلب صديق".

–البصائر والذخائر: وفيه عرض للأدب والتاريخ واللغة والحديث الشريف والتفسير بأسلوب يكشف عن ثقافة موسوعية، وموضوعية علمية، وإسناد واسع.

–أخلاق الوزيرين، أو مثالب الوزيرين: وفيه ينقد الوزيرين ابن العميد وابن عباد لسوء معاملتهما له.

–الهوامل والشومل: والهوامل هي الإبل السائبة، والشوامل هي الحيوانات التي تضبط الإبل، ألَّفه سنة 375هـ بعد مقتل الوزير الصديق ابن سعدان، وفيه أسئلة موجّهة لمسكويه في علم الفلسفة وعلم الكلام واللغة.

–الإشارات الإلهية: بلغ فيه أعلى مراتب البيان والنجوى مع الله، كتبه بعد أن أحرق كتبه، تعبيرًا عن موقفه الصوفي.

المقابسات: ضمَّ مئة مقابلة أو محاورة بين العلماء، موضوعها الفلسفة والمنطق، والطبيعة والإلهيات.

الإمتاع والمؤانسة: وضعه في بداية حياته، وهو أهم آثار التوحيدي، وأول كتاب محقق نشر في القاهرة سنة 1939م.

بأسلوبه، بل لعله أضاف إليه من أفكاره، وحصر فيه من الآراء المتفقة مع آرائه، ما يجعله أقرب إلى فلسفته الخاصة، وذهب عفيف البهنسي إلى عدٍّ ما كتبه في الفكر الجمال العربي، إنَّما هو مجموعة آراء المفكرين العرب والأدباء والفنانين الذين اهتموا بالفن والصناعة، كما اهتمّ هو، فكان من ذلك هذه النظرية العربية التي شملت علم الجمال الحديث[3].

وإذا أردنا تتبع مصادر آراء التوحيدي الجمالية والفنية، فضلًا عن تتبع آثار ذلك في كتبه ومعرفة خضوعه لتأثيرات أساتذته وآرائهم، فإننا نستطيع حصر جميع العناصر الثقافية الشائعة يومذاك في بغداد، وخاصة الفلسفة اليونانية الرائجة آنذاك، فآراء التوحيدي الجمالية والفنية المنثورة في كتبه هي آراء أساتذته من مشاهير عصره، وخاصة في الفلسفة، وكان التوحيدي ينقل آراء معاصريه بأمانة بعد جمعها وتنسيقها وروايتها بأسلوبه، ومن ثمَّ يبدي رأيه فيها، فكان له الفضل في الاختيار والجمع والصياغة بأسلوب مشرق واضح، أما الآراء والتعليقات التي كان يبديها التوحيدي في ذلك المجال فكانت نتيجة تراكم ثقافي موسوعي وتأثره بآراء أساتذته من المتفلسفين على الطريقة اليونانية، فلم تظهر آراء التوحيدي الجمالية إلا من خلال آراء مَن تتلمذ عليهم كمسكويه، ويحيى بن عدي، وأبو بكر القومسي، وابن زرعة وابن الخمار، وأبو الحسن العامري، وأبو سعيد السيرافي، وأبو سليمان المنطقي، وهذه الآراء كانت تمثل وجهة نظر التوحيدي مع ما فيها من تناقضات في سياقات وفاق وسياقات خلاف صاغها بأسلوبه[4].

---

[3]- البهنسي، عفيف: لفكر الجمالي عند التوحيدي، ص: 1- 16.

[4]- كل اقتراب من اهتمام التوحيدي بالجمال يفترض النظر إليه ضمن التصور الخاص الذي صاغه عن الوجود والمعرفة والإنسان، وبالتالي نصوصه الحاملة لهذا التصور تبدو أنها تركبت من مصدرين فكريين اثنين: الفكر الفلسفي اليوناني، وما استوعبه من الأساتذة الذين سبقوه وممن عاصر، فأساليب السماع والمحاورة جعلته يكشف في نصوصه كل التركة الفكرية والفلسفية التي ورثها، فهو لا يكف عن الإحالة إلى أسماء من سقراط إلى أفلاطون وأرسطو، مرورًا بالكندي والفارابي وابن سينا وإخوان الصفا والآمدي والجرجاني والسجستاني ومسكويه... فجمع بين الفلسفة والأدب، انظر: أفاية، محمد نور الدين: الاهتمام بالجمال عند التوحيدي، مجلة فصول، مجلد (15)، العدد (1)، 1996، ص: 117. يشار إلى أنَّ غالبية ما ورد في مقال الدكتور محمد نور أفاية المعنون بالاهتمام بالجمال عند التوحيدي، قد أورده حسين الصديق في أطروحته للماجستير عام 1980م، وكان عنوانها: الرؤية الجمالية عند أبي حيان التوحيدي، بإشراف الأستاذ الدكتور فؤاد المرعي، وقد نوقشت في كلية الآداب بجامعة حلب، ثمّ طبعت فيما بعد فكان عنوانها: فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي.

القبح الجمالي:

يُقصَد بالقبح الجمالي التعبير عن القبح بوساطة الفن، فقد يجمَّل القبيح، وقد يقبَّح الجميل، فالقبيح المذموم يغدو جميلًا عندما يتجسد بعمل فني، وعلى هذا يغدو القبيح في الواقع جميلًا عندما يتجسد فنيًا بلوحة أو قصيدة أو قصة أو مسرحية أو نكتة أو غير ذلك من الفنون.

والقبح الجمالي يتضح من خلال تحليل ظاهرة الضحك بوصفها قيمة جمالية، فمعنى الفكاهة والسخرية والاضحاك مستمد من ميدان الفلسفة، وبخاصة من ميدان علم الجمال، حيث تمَّ التمييز بين الأمر المضحك **Comic**، والذي يعرَّف بأنّه الملكة أو القدرة على جعل المرء يضحك أو يتسلَّى أو يستمتع أو يمرح، وبين الخصائص الجمالية الأخرى، مثل: الجمال الشكلي، والتناسق، والانسجام (الهارموني)، والتوزان[5].

فالقبح الذي يغدو في الفن جميلًا ليس هو عين ذاته، بل صورته، فالوجه القبيح، أو التصرف القميء، أو الطبع المذموم... ذلك كلّه ليس جميلًا في ذاته، وإنَّما الجميل هو تصويره فنيًا، ويختلف التصوير من فن إلى فن، ومن فنان إلى آخر، ولذلك تختلف قيم جمال هذه الموضوعات تبعًا لبراعة الفنّانين وقدراتهم على اقتناص المشاهد الفنية، ويلزم عن ذلك مباشرة أنَّ جمالية الإبداع الفني تتجلى أكثر ما تتجلى في الوصف ودقته، وكيفية التصوير، وبراعة التعبير، وحسن انتقاء ألوان اللوحة: رسمًا أو شعرًا أو نثرًا... ورشاقة الحركة في ذلك كلّه[6].

تفسير الضحك:

إنَّ التعبير عن القبح فنٌّ بحدِّ ذاته وأكثر ما يطلقه مشخصًا أمامنا هو فنُّ الإضحاك، فغاية التعبير عن القبح في الفن هي الإضحاك، يقول التوحيدي على لسان مسكويه: "من شأن المُضْحِكِ أن يتطلبَ أمورًا مَعْدُولَةً عن جِهاتها، ليسْتَدعِيَ بذلِك تَعَجُّبَ السامِعِ وضِحْكَهُ"[7]. فغاية التعبير عن القبح جماليًا هي الاضحاك، وهذا ما يبدو واضحًا في الفنون كلها بما فيها فن الاضحاك المتمثل في النكت وكذا الرسم الساخر

[5]– انظر: عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك، سلسلة عالم المعرفة 289، الكويت، 2003، ص: 194.

[6]– انظر: السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، منشورات جامعة تشرين،2007–2008، ص:291–293.

[7]– التوحيدي. أبو حيان: الهوامل والشوامل، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد صقر، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951، ص: 289.

Caricature، فأسئلة التوحيدي تكشف طبيعة الموقف النفسي الذي لابدَّ أن يتخذه المضحك أو الممثل الهزلي، يقول: "لِمَ صار الناس يضحكون من المضحك إذا لم يضحك أكثر من ضحكهم منه إذا أضحك؟ وهذا عارض موجود في كل من ألهاك ولم يضحك"[8]، وهذه الأسئلة تدل على اهتمام التوحيدي بفلسفة الضحك[9].

فمواصلة الجِدِّ بالجِدِّ تُورثُ الكَلالَ والملل، لذلك لابدَّ من الضحك للتفريج عن النفس، وتبديد الكَرْبِ والهَمِّ، وقد قدَّم التوحيدي تحليلًا للضحك، فرأى فيه قوة خاصة بالإنسان كونه جامعًا لقُوَّتَي الإنْسانيَّةِ والحَيَوانيَّةِ، وقوة الضحك تتوسط هاتين القوتين، أما سبب الضحك فهو التعجُّبُ والانْدِهاشُ منْ أمرٍ، سلوك، قولٍ، صورةٍ... يقول التوحيدي: "الضّحك قوةٌ ناشِئَةٌ بين قُوَّتي النُّطْقِ والحَيَوانية، وذلك أنَّه حالُ النفس باسْتِطْرافٍ واردٍ عليها، وهذا المعنى مُتَعلِّقٌ بالنُّطق من جهةٍ، وذلك أنَّ الاسْتِطرَافَ هو تَعَجُّبٌ، والتَّعجُّبُ هو طَلَبُ السَّببِ والعِلَّة للأمْرِ الوارِد. ومن جهة تتبّع القوّة الحيوانيّة عندما تتبعث من النّفس فإنّها إمّا أن تتحرّك إلى داخل، وإمّا أن تتحرّك إلى خارج. وإذا تحرّكت إلى خارج فإمّا أن تكون دُفعةً فيحدُث منها الغضبُ، وإمّا أوّلًا فأوّلًا وباعتدال فيحدُث السرور والفرح، وإمَّا أن تتحرّك من خارج إلى داخل دُفعة فيحدث منها الخوفُ. وإمّا أوّلًا فأوّلًا فيحدث منها الاستهوال. وإمّا أن تتجاذَب مرّة إلى داخل ومرّة إلى خارج فتحدُث منها أحوال إحداها الضّحِك عند تجاذُب القّوتين في طلبِ السبب، فيحكم مرّة أنّه كذا ومرّة أنّه ليس كذا، ويسيرُ ذلك في الرّوح حتى ينتهي إلى العصب فيتحرَّك الحركتين المتضادّتين، وتعرِض منه القهقهة في الوجه لكثرة الحواس وتعلّق العصب بواحدٍ منها"[10].

---

[8]- المصدر السابق والصفحة نفسها، وانظر: السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 294؛ وإبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 269-270.

[9]- ثمة ألفاظ في اللغة العربيّة تبيُّن أصنافِ الضحِك، جاء في فقه اللغة للثعالبي: "التَبسُّمُ أوّلُ مراتبِ الضَّحكِ، ثمّ الإهْلاسُ وهو إخفاؤهُ (عن الأموي)* ثمَّ الافْتِرَاء والانْكِلَالُ، وهما الضَّحِكُ الحَسنُ(عن أبي عبيد)* ثمَّ الكَتْكَتة أشدُّ منهما* ثمَّ القَهْقَهَةُ* ثمَّ القَرْقَرَة[9]*والكَرْكَرَة[9]* ثمّ الاسْتغرَاب[9]* ثمّ الطَّخْطَخَةُ وهيَ أن يقولَ: طِيخ، طِيخ* ثمّ الإهْزَاقُ والزَّهزَقَةُ وهي أنْ يَذْهَبَ الضحكُ به كلَّ مذْهبٍ (عن أبي زيد، وابن الأعرابي وغيرهما)" انظر: الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت430هـ، فقه اللغة وأسرار العربية، شرحه وقدَّم له ووضع فهارسه: د. ياسين الأيوبي، ط2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2000م، ص: 150-151.

[10]- التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، محقق ومشروح بقلم: حسن السندوبي، ط2، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992، ص: 274؛ وانظر: اليافي، عبد الكريم: دراسات فنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1996، ص: 53-54؛ وإبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 269؛ والسيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 296-297.

فالضحك قوة تنشأ، في ضوء التصور الأرسطي، عن تفاعل القوة الناطقة والقوة الحيوانية؛ أي عن قوتي العقل والغريزة، ويجمع الضحك بين خصائص مشتركة للحيوان والإنسان معا (القوى الحيوانية) وخصائص مميزة للإنسان فقط (القوة العاقلة أو الناطقة)، وتظل النفس مرة تتحرك نحوالداخل ومرة نحو الخارج، مرة تتأمل ذاتها ومايوجد فيها من أفكار ورؤى، ومرة أخرى سريعة تتحرك نحو الخارج لتدرك مابه من أحوال وتناقضات، وتقارن بين ماهو موجود بداخلهاوماهو موجود بخارجها، فيحدث منها أحوال يكون الضحك أحدها.

والملحوظ أنّ التوحيدي الفيلسوف الجادّ الوقور عندما بحث في حقيقة الضحك، وتبيّن أسبابَه أبعدنا عن ظاهرة الضحك. "وشتّان ما بين الظاهرة وتفسيرها الفلسفيّ" كما يقول الدكتور عبد الكريم اليافي[11].

ورؤية التوحيدي للضحك رؤية عميقة حديثة، حيث أنّها تكاد ترهص، أو على الأقل تسبق ما ذكره شوبنهور (بعد التوحيدي بأكثر من سبعة قرون) من أنَّ الضحك يحدث نتيجة للإدراك المفاجئ للتناقض بين تصور معين، والموضوعات الدافعية المحددة التي تمّ الاعتقاد من قبل بوجود علاقة بينها، وبين هذا التصور، لكنها الآن علاقة جديدة، صحيح أنّ التوحيدي لم يبلور مسألة التناقض هذه على نحو مفصل؛ لكنه ألمح إليها بطريقة أو بأخرى. وكذلك "إشارات التوحيدي للأساس الجسمي للضحك، مع أنّها إشارات غامضة، تتفق مع تحليلات أخرى أكثر حداثة من الناحية الزمنية تربط الضحك بحركة من الوجه تمتد إلى الجسم كله، وتكون الأعصاب هي الموصلات السريعة لهذه الحركة فتحدث القهقهة"[12].

وتطبيقًا لرؤية التوحيدي لتفسير ظاهرة الضحك وتأكيدًا له يورد في كتابه الإمتاع والمؤانسة طرفة يقول فيها: "كتب مجنون إلى مجنون: بسم الله الرحمن الرحيم. حفظك الله، وأبقاك الله، كتبتُ إليك ودِجلَةُ تطْغَى، وسُفُنُ الموصِلِ هاهيَ، ومايزدادُ الصبيانُ إلا شرًّا، ولا الحجارةُ إلا كثْرَةً، فإياكَ والمَرَقَ فإنَّه شرُّ طعامٍ في الدنيا، ولاتَبِتْ إلا وعندَ رأسِكَ حَجَرٌ أو حَجَران، فإنَّ الأخْبَرَ يقول: وأعدُّوا لهم مااستطعتم من قُوَةٍ"[13]. ويعقب واصفًا الوزير أبا عبد الله العارض الذي كان يستمع إليه: "فَضَحِكَ– أضحك الله سنَّه– حتى

[11]– انظر: اليافي، عبد الكريم: دراسات فنية في الأدب العربي، ص: 54.

[12]– عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك، ص: 276– 278.

[13]– التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص: 204/2.

استلقى، وقال: ماالذي يَبْلُغُ بنا هذا الاستِطْرَافَ إذا سمعنا بحديثِ المَجانِين؟ فقال ابن زرعة: لأنَّ المجنون مشارِكٌ للعاقل في الجِنْسِ، فإذا كان مِنَ العاقل ما يُحْسَبُ أن يكون مِنَ المجنونِ كُرِه ذلكَ لهُ، وإذا كان من المجنونِ ما يُعْهَدُ من العاقل تُعُجِّبَ منه"[14].

ولأنَّ التَّعَجُّبَ ممَّا تتنازعُ فيه العِلَّتانِ المُعَلِّتانِ فإنَّهُ يثيرُ الضحكَ، ويبدو "أنَّ التوحيدي قد احتاط بتعريفه إذْ حدَّدَ التَّعجُّبَ والاندهاشَ اللذين يثيرانِ الضحكَ بأنَّهُما اللذان يضعان السامع أو الرَّائي أمام طرفي مزدوجةٍ يَشُدَّانهِ بالقوةِ ذاتها، تاركًا أنواعَ التَّعَجبِ الأخرى التي منها ما يثير الخوفَ ومنها ما يثيرُ الخوفَ ومنها ما يثيرُ الغضبَ أو غير ذلك"[15].

والملحوظ أنَّ التوحيدي كان يمارس الضحك عبر كتاباته أكثر مما كان ينظَّر للضحك، ولو أنَّه أولى الجانب النظري منه أكثر مما أولاه لربما خرج بنظرية متكاملة في فلسفة الضحك، وكان موقفه من الضحك موقف الوسطية، ونادى بالاعتدال والضحك اللطيف الظريف أو الدعابة، بيد أنَّه لجأ إلى السخرية العنيفة والتقبيح للآخرين، ولم يقف عند حدّ الوسطية والاعتدال؛ بل تجاوز ذلك إلى التطرف المسرف والمبالغة والتقبيح الذي وصل إلى درجة الاضحاك من الخصم.

التشاؤم والضحك:

حاول التوحيدي مزج الجدّ بالهزل[16]، لئلا يمل القارىء، ودعا إلى سماع الهزل، في إشارة منه إلى حاجة النفس إليه، بل إنّه هاجم من ينتقد هذا المنهج أو يعيبه، ويعدُّ ذلك ظلمًا، فالنفس تحتاج إلى الترويح بالمزاح، مما يدل على أنّ التوحيدي قد أدرك ضرورة الضحك، لذلك أكثر من المُلَح والنُّكتِ والطرائف المضحكة، بل قدَّم تسويغًا للضحك ودعوةً إليه، ففي نهاية جلسة أكثر فيها من عرض النُّكَتِ ختمَ حَدِيْثَهُ بقوله: "وقد بلغَني أنَّ ابن عباس كان يقول في مجلسه، بعد الخوضِ في الكتاب والسُّنَّة والفقه والمسائل: أَحَمِصُوا[17]، وما أَظُنُّهُ أراد بذلك إلا لتعديل النفس لئلا يَلْحَقَهَا كَلالُ الجِدِّ، وَلتَقْتَبِسَ نشاطًا في المُسْتَأنَفِ، وَلَتسْتَعِدَّ لقَبُول مايَرِدُ عَلَيها فَتَسْمَعُ..."[18].

---

[14]- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[15]- السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 298-299.

[16]- وضمن كتاباته في أخلاق الوزيرين سخرية لاذعة وفكاهة واضحة، وتتجلى، أيضًا، السخرية والفكاهة والضحك وفلسفته في ثنايا كتبه الأخرى: الإمتاع والمؤانسة، والبصائر والذخائر، والهوامل والشوامل، وأخيرًا كتابه المقابسات، وبخاصة المقابسة رقم/71/.

[17]- لعلها أحمضوا، بالضاد وليس بالصاد كما وردت في النص المحقق، أي أفيضوا في الأحاديث المستملحة والفكاهات.

[18]- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ص: 60/2.

ولكن كيف يجتمع اليأس والتشاؤم مع الضحك أو فن الضحك؟

عاش التوحيدي باحثًا عن السعادة طوال حياته، وهو يأمل في تحقيقها، شأنه شأن أي إنسان، إلا إنَّه لم ينل إلا خيبة الأمل، فكتب عن تجربته المؤلمة هذه في ثنايا كتبه، وتمثلت السعادة عنده وهو في مقتبل العمر في حياةِ الخاصةِ الفكرية، فسعى إلى أن تكون له الرياسة بين هذه الخاصة بوساطة الأدب، ولذا أقبل على التراث كلّه يجمعه وينقده، ومع ازدياد نضجه الفكري تحول التوحيدي من جامع للتراث ومؤرخ له إلى صاحب رأي وموقف وقضايا؛ أي تحول إلى التفلسف، وعندما فشلت الفلسفة بدورها في تحقيق سعادة التوحيدي شنَّ حملة عنيفة على الدنيا بما فيها من بشر، فاضحًا مثالبهم ونقائصهم، ثم تحول إلى البحث عن السعادة الأبدية وجعل وسيلته لذلك التقرب إلى الله بالمناجاة والحب وأحيانًا الشكوى، ولم ينجح في هذه الخظوة أيضًا، وظل تعسًا محتاجًا إلى الناس، حانقًا عليهم لأنَّهم لم يحققوا له سعادته وتركوه فريسة لغربة موحشة افترسته، مما حال دون نجاحه في التوجه الخالص المطلق لله، والدليل على ذلك حرقه كتبه التي ضمنها فكره، أي حياته[19].

ولعل في رسالته التي كتبها إلى صديقه أبي سهل عليِّ بن محمد لتعليل إحراق كتبه ما يدلُّ على ذلك خير دلالة، ولاسيما أنّها كانت في أواخر حياته، وفيها التعبير الدقيق عمَّا جناه طوال رحلته مع الأدب والعلم[20]، وفيها يعتذر التوحيدي إلى القاضي أبي سهل الذي كتب إليه يعذله على صنيعه، ويُعَرِّفُه قبح ما اعتمد من الفعل، فردّ التوحيدي معتذرًا مبررًا هذا الفعل القبيح، يقول: "على أنّي جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كلّه... وكرهت مع هذا وغيره أن يكون حجة عليَّ لا لي... فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها"[21].

وليس معروفًا عدد الكتب التي أحرقت ولامضامينها، بيد أنَّ ما تركه التوحيدي ينمُّ عن عبقرية واضحة، وليس من اللازم هنا تأكيد ذلك الارتباط الوجداني العميق بين المؤلف وكتبه؛ بل بين المؤلف والكتب عمومًا؟

---

[19]– انظر: الخضيري، زينب محمود: أبو حيان التوحيدي والبحث عن السعادة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996، ص: 36–37.

[20]– انظر: السيد أحمد، عزت: من رسائل أبي حيان التوحيدي، ص: 53.

[21]– التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، ص: 110 وما بعد؛ وانظر: الكيلاني، إبراهيم: رسائل أبي حيان التوحيدي، دار طلاس، دمشق، 1985، ص: 406–407.

فهل كان التوحيدي قد نقم على الكتب والكتابة حقًا أم كان يموِّه على الناس بحركة (تراجيدية) تستدر عطفهم وأموالهم؟ وما معنى إحراق الكتب؟ هل يوهم بالخلاص منها، وهو يعلم أنَّ أصولها موجودة في خزائن من كتبها لهم ليسامرهم بها، وأنَّ نسخها الخطية محفوظة لدى الوراقين ليستنسخوها حتى وصلت إلينا اليوم لتسرَّ النفسَ وتذِّكر بحديث الأمس[22].

ولنا أن نتساءل أيضًا عن الأسباب التي تؤدي إلى هوان الكاتب على عصره إلى الدرجة التي تدفعه إلى قرارة اليأس من هذا العصر، فيقترف فعل الانتحار الرمزي، ويقوم بتدمير أعزِّ ما يملك، ملقيًا به إلى النار، احتجاجًا على عصره الكريه الذي دفع به إلى قلب الظلمة وهوّة اليأس[23].

وقد تكرَّس يأسُهُ وتجذَّر تشاؤُمُه في أواخر حياته بشكل واضح؛ أفإذا لم يحظَ بما أمل في كلِّ ما مضى من عُمْره أفيكون له بعدما بَلَغَ من العمر ما بَلَغَ مطْمعٌ في ما كان يرجوه فيما مضى[24]؟! يقول: "وبعدُ؛ فقد أصبحت هامَةً اليومَ أو غدًا، فإنِّي في عشْرِ التسعينَ، وهل لي بعد الكبْرةِ والعجزِ أملٌ في حياةٍ لذيذةٍ ؟ أو رجاءٌ لحال جديدةٍ ؟"[25].

هذا مع ما يتركه طول العمر من تعب وتخامل في الأعضاء، وفتور الهمَّة، وقلةِ العزم، يقول: " فقد كلَّ البصر، وانعقد اللسان، وجمد الخاطرُ، وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب اليأس من جميع الناس"[26]. ويقول مسكويه في افتتاحية كتابه "الهوامل والشوامل" وهو يجيب عن أسئلة التوحيدي: "قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسائلك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان، واستبطأت بها الإخوان، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم"[27]، وواضح أنَّ عبارة مسكويه تشير إلى ما كان يعاني منه التوحيدي من قلق واكتئاب، أدى به إلى انتحار نفسي بإحراق كتبه.

وكأنَّ التوحيدي كان يعي عبقريته وإمكاناته الإبداعية، ويدرك أنَّه ذو ذكاءٍ مُتَّقد وقريحةٍ مُلهمةٍ فعقد على ذلك الآمال في أن يصيبَ الحياة الرغيدة السعيدةَ البعيدةَ عن الفقر والحرمان، ولكنّه فشل في ذلك بعد أن تنكر له زمانه وأهل زمانه، كما يصف ذلك

---

[22]- انظر: زيدان، يوسف: هل كان التوحيدي صوفيًا أم فيلسوفًا؟ مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد (1)، 1996، ص: 98-100.

[23]- عصفور، جابر: الرغبة المكتسبة للكتابة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996، ص: 5.

[24]- انظر: السيد أحمد، عزت: من رسائل أبي حيان التوحيدي، ص: 56.

[25]- التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، ص: 111.

[26]- المصدر نفسه، ص: 113.

[27]- التوحيدي، أبو حيان: الهوامل والشوامل، ص: 1.

ياقوت الحموي[28]، فمن "الحقائق النفسية المقررة أنَّه إذا رافقت النبغاء أحوالٌ مادِّيَّةٌ ومعنويَّةٌ سيِّئَةٌ في حياتهم، استحالت عواطفُهُم المكبوتة مع مرور الزَّمن إلى بغضاء ومرارةٍ، وحِقْدٍ على الأحياء ونفرةً من المجتمع... والتوحيدي كما نعلم كان شديد الاعتداد بأدبه ومواهبه؛ يتألم من جهل معاصريه، واستخفافهم بقدْرِهِ، فلم يجدْ مناصًا من اللجوء إلى العزلة والانكماش"[29]. وكأن التوحيدي كان يعشق إثارة المشاكل بدلًا من البحث عن الحلول، فهو لا يرى إلا السلبي ولايتبين الإيجابي.

فهذه الحال هي المصدرُ الرَّئيسُ لألم المُبْدع ومعاناته؛ الألم والمعاناة اللذين يُمثِّلان المَعينَ الذي ينْضحُ منْهُ المُبدعُ مادَّتهُ، وقد عبَّر التوحيدي مرارًا في ثنايا كتبه ورسائله عن هذا اليأس والتشاؤم؛ اليأس من تحصيل المراد أو بعضه، والتشاؤم من الحياة بِمَن حَوَت، وعدم الثقة في الآخرين، ولا غرابة أنَّه تعرض في مواضع متفرقة من كتبه إلى مشكلة الموت والانتحار[30].

بيد أنَّ هذه الروح التشاؤمية لم تحل بينه وبين البحث عن السعادة بحثًا مستفيضًا، ففي حديثه عن السعادة يربط بين الفكر والسلوك، بين العلم والعمل[31]، وأول عائق في تحقيق السعادة هو الاختلاف بين البشر الذين يحولونه إلى خلاف، لأنَّهم لايصبرون على اختلافهم بعضهم عن بعض، فالإنسان يصعب عليه، إنْ لم يكن يستحيل عليه، قَبول الآخر المختلف، ولهذا انعدمت الصداقة أو كادت، وهي العلاقة الوحيدة التي يمكن أن تربط بين البشر بالرغم من اختلافهم، وبدا عند التوحيدي أنَّ الاختلاف قانون يتحكم في الوجود الإنساني، فالأمم تختلف اختلافًا يصنعه اختلاف خِلقتهم ويدعمه التاريخ، إلا أنَّ البشر ينجحون في التقارب والارتباط بعضهم ببعض بالصداقة، ويرى أنَّ علاقة البشر فيما بينهم علاقة عضوية بالرغم من اختلاف أطرافها، يقول على لسان الحسن بن سهل مخاطبًا أحد أصدقائه: "أجدني وإياك كالجسم الواحد إذا خَصَّ عضوًا منه ألم عمَّ سائره فعافاني الله بعافيتك، وأدام ليَ الامتاع بك"[32].

---

[28]– انظر: الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، ص:37/15؛ والسيد أحمد، عزت: من رسائل أبي حيان التوحيدي، ص: 52

[29]– الكيلاني، إبراهيم: رسائل أبي حيان التوحيدي، ص: 67.

[30]– انظر: التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، المقابسة رقم(46 و54)؛ وانظر: التوحيدي، أبو حيان: الهوامل والشوامل، المسألة: (24و74و96و102).

[31]– انظر: العراقي، عاطف: مفهوم الإنسان عند أبي حيان التوحيدي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996، ص: 29.

[32]– التوحيدي، أبو حيان: الصداقة والصديق، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996، ص: 47؛ وانظر: الخضيري، زينب محمود: أبو حيان التوحيدي والبحث عن السعادة، ص: 47.

وواضح أنَّ التوحيدي قد اتخذ من الضحك بديلًا يستعين به على اجتناب البكاء، فبقي الحس الفكاهي عنده مشوبًا بضرب من المرارة الدفينة التي انطوت عليه حياته الخاصة[33]، ومهما كان من أمر تشاؤمه ويأسه وثورته على الناس، فمن غير المبرر وصفه بأنّه كان سوداوي المزاج، وآية ذلك مزجه الجد بالهزل، وروايته النكتة بعد النكتة، واستخدامه سلاح السخرية والتصوير الهزلي في هجائه لخصومه، فهو لم يكن ينجح في كتم ضحكه أو التحكم في ميله إلى الفكاهة، حتى حين يكون في حضرة الوزراء أو الكبراء، وهذا دليل تمتعه بحس فكاهي قوي، وكان يطرد كآبته بالفكاهة، ويواجه آلامه بالهزل، وينكر واقعه بالنكتة[34]، فلم يمزج الهزل بالجد والجد بالهزل على طريقة الجاحظ[35] الذي كان يريد من وراء هذا دفع ملل القارئ وسآمة السامع، وإنَّما كان إقباله على الفكاهة جزءًا لا يتجزأ من صميم فلسفته التشاؤمية التي كانت تريد إلغاء الواقع، والتنكر له، والسخرية به، فلم يكن فن الضحك عنده مجرد أداة دفاعية اصطنعتها نفسه لمواجهة ما في حياته من شدة وقسوة وحرمان، ولعل هذا هو السبب في أنَّ معظم الفكاهات التي وردت على لسان التوحيدي كانت نوادر أريد بها خلق جو انطلاقي ملؤه اللهو والعبث واللاواقعية، وكأنه أراد لها أن تكون أداة تطهيرية تبدد هواجسه الكئيبة، وتطرد عنه أشباح الفشل والفقر والشقاء[36].

---

[33]- انظر: إبراهيم. زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 270.

[34]- المرجع نفسه: ص: 95.

[35]- شرح الجاحظِ في مقدّمة كتابه "البخلاء" بعضَ فضائل الضّحك، يقول: "ولو كان الضحك قبيحًا من الضاحك، وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزهرة والحِبَرة والحلْي والقصر المبنيِّ: كأنَّه يضحك ضحكًا. وقد قال الله جلَّ ذكره: "وأَنَّهُ هو أَضحَك وأَبْكَى وأنَّه هو أَمَاتَ وأَحْيَى" فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت، وإنَّه لا يضيفُ الله إلى نفسه القبيح، ولا يمنُّ على خلقه بالنقص. وكيفَ لا يكون موقِعُه من سُرور النفس عظيمًا ومن مصلحة الطِّباع كبيرًا، وهو شيءٌ في أصلِّ الطِّباع وفي أساس التركيب؛ لانَّ الضحك أوّل خيرٍ يظهرُ من الصبيّ، وبه تَطيبُ نفسُهُ، وعليه ينبت شحمه ويكثُر دمه الذي هو عِلّة سُروره ومادّة قوّته.

ولِفضل خصال الضحك عند العرب تُسمّي أولادَها بالضَّحّاك وببسّام وبطَلْق وبِطَليق، وقد ضحك النبيّ–صلى الله عليه وسلّم– ومزَح، وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مَدَحوا قالوا: هو ضحوك السنّ، وبسّام العشيّات، وهشٌّ إلى الضيف، وذو أريحيّة واهتزاز، وإذا ذمّوا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قَطوب، وهو شتيم المحيّا، وهو مُكفهرٌّ أبدًا، وهو كريه، ومُقبض الوجه، وحامِض الوجه، وكأنَّما وجهه بالخلّ منضوحٌ.

وللضحك موضعٌ وله مقدارٌ، وللمَزْح موضعٌ وله مقدار، متى جازَهما أحدٌ وقصّر عنهما أحدٌ، صار الفاضِل خَطَلًا والتقصير نقصًا، فالناس لم يَعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفعُ، وبالضحك الشيء الذي له جُعل الضحك، صار المزحُ جِدًّا والضحك وقارًا". انظر: الجاحظ: البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، ط5، دار المعارف، القاهرة، سلسلة ذخائر العرب 23، 1990، ص: 6-7.

[36]- انظر: إبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 250

مظاهر فن الإضحاك والتقبيح:

ثمة نظرية واضحة المعالم في الضحك عند التوحيدي، فهو يقصد في كتبه قصدًا واضحًا لما يعتقده من أثر الضحك العميق في النفس، فعلى الرغم من بؤس التوحيدي وميله إلى التشاؤم إلا أنَّه ينطوي على نزوع شديد إلى فن الاضحاك بما يمتلكه من مواهب فنية متميزة، وقد تحلى بنفسية تهكمية غطَّى بها على تشاؤمه وسوء حظه في هذه الحياة، فتميز بحفظه لنكتٍ تنتزع الضحك من فم المستمع أو القارىء انتزاعًا، وكان ميّالًا إلى اصطناع المواقف المضحكة بتهكمه اللاذع وأجوبته المفحمة أحيانًا والمنطوية على مفارقة مضحكة أحيانًا أخرى، وكانت الحياه المضطربة التي عاشها في الفقر والحاجة قد أثَّرت في توجهه نحو الفكاهة والسخرية[37].

ونورد هنا أهم مظاهر فن الاضحاك والتقبيح، ومنها: التهكم، والدعابة، والمباغتة، والتخلص من المواقف المحرجة، والغفلة والتغافل، والمبالغة والمغالاة، ويلخص التوحيدي صفات النادرة والفكاهة فيقول: "ملح النادرة في لحنها، وحرارتها في حُسْن مقطعها، وحلاوتها في قصر متْنِها، فإذا صادف هذا من الراوية لسانًا ذليقًا، ووجهًا طليقًا، وحركةً حلوةً، مع توخي دقتها، وإصابة موضعها، وقدر الحاجة إليها، فقد قضي الوطر، وأدركت البغية"[38].

التهكم:

كان التوحيدي على الرغم من بؤسه وكثرة شكاته ميالًا إلى الهزل والدعابة والتهكم والتشفي بأسلوب ساخرٍ، وقصته مع الوزيرين ابن العميد وابن عَبَّاد معروفة، وبسببهما وضع كتابه الشهير: "مثالب الوزيرَين" الذي كان واحدًا من فرائد التهكم في التراث الإنساني، وعدَّه آدم ميتز من أروع آيات النثر العربي[39]. وميزة التوحيدي أنَّه برع في تصوير عيوب الناس وإبراز نقائصهم، والمبالغة في تجسيم مثالبهم، وكأنَّما هو الرسام الهزلي الذي يسخر من الناس بريشته الفنية البارعة[40] مما يشكل دعامة المحور في فن الإضحاك التي جاءت نتيجة التعبير الجمالي أو الفني عن القبح، وكتاب "مثالب الوزيرين"

---

[37]– السيد أحمد، عزت: من رسائل أبي حيان التوحيدي، المختار من التراث العربي، وزارة الثقافة، دمشق، 2001، ص: 47.

[38]– التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1964، ص: 111/1.

[39]– انظر: إبراهيم. زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 248؛ والسيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 308؛ وميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبي ريده، القاهرة، 1941، ص: 295/1.

[40]– انظر: إبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 264.

مليء بالسجع المتكلّف الذي يجريه التوحيدي على لسان الصاحب بن عباد الذي كان يميل إلى استعمال السجع، وكإنَّما يريد التوحيدي أن ينسب إلى الصاحب من السجع المتكلّف المبالغ فيه ما يثير الضحك منه والسخرية، من ذلك ما رواه التوحيدي من أنَّ الصاحب قال يومًا في دار الإمارة لفيروزان المجوسي: "إنَّما أنت مخش[41] مجش[42] محش[43]، لاتهش ولا تبش ولاتمتش[44]، فقال له فيروزان: أيّها الصاحب! برئت من النار إنْ كنتُ أدري ما تقول!"[45] ومن ذلك أيضًا قوله لشيخ من خراسان: "والله لولا شَيْبُكَ لقطعتك تقطيعًا، وبضَّعتك تبضيعًا، ووزعتك توزيعًا، ومزّعتك تمزيعًا، وجزّعتك تجزيعًا..."[46].

ويذهب التوحيدي إلى أنَّ السجع ينبغي أن يكون "كالملح في الطعام إذا زاد عن المقدار يصبح الطعام زعقًا، ويصير الكلام مشابهًا لكلام الكهنة من العرب، والمستعربين من العجم، ومتى ظفر منه بمقدار الرتبة، وحسب الكفاية، حلا منظره، وبهر بهاؤه، وسطع نوره، وانتشر ضياؤه"[47]، وينبغي أن يكون "كالطِّراز في الثوب، والصَّنِفَة[48] في الرداء، والخط في العَصْب[49]... والخال في الوجه؛ ولو كان الوجه كلُّه خالًا لكان مَقليًا"[50].

وقد وصف التوحيدي قبحَ الصاحب وبالَغَ في تقبيحه، يقول: "كان الصاحبُ يُنشدُ وهو يُلْوي رقَبَتَهُ، ويُجْحِظُ حَدَقَتهُ، ويُنْزِي [يُدلي] أَطْرافَ مَنْكِبِه، ويَتَسَاءَلُ ويَتَمَايَلُ وكأَنَّهُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ من الْمَسِّ"[51]، ويقول في وصف ابن العميد: "...أَحسبُ أنَّ عينيه رُكِّبَتا من زِئْبَقٍ، وعُنُقَهُ عُمِلَ بِلَولَبٍ، وصدّقّ فإنَّه كان ظريفَ التَّثَنِّي والتَّلَوِّي، شَديدَ التَّفكُّكِ والتَّفَتُّلِ، كثيرَ التَّعوُّجِ والتَّموُّجِ في شَكْلِ المرأةِ المُومِسةِ، والفاجِرةِ الماجِنةِ، والمُخَنَّثِ الأَشْمَطِ"[52]. فالقبح والتقبيح هنا هما أسُّ التهكم، ذلك أنَّ وصفَ القبح لمجرد الوصف ليس تهكمًا، وإنَّما لابدَّ من مبالغةٍ في الوصف.

---

[41]- المخش: الرجل الجريء.

[42]- المجش: الرحَى.

[43]- المحش: ما تحرك به النار.

[44]- متش الناقة: حلبها بأصابعه حلبًا ضعيفًا، والمعنى: إنَّك خشن الطبع جافه لا ليونة فيك.

[45]- التوحيدي، أبو حيان: مثالب الوزيرين، حققه وعلق على حواشيه: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، 1992، ص: 104-105.

[46]- المصدر السابق: ص: 140؛ وإبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 268.

[47]- التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، ص: 68/2.

[48]- صنفة الإزار بكسر النون: حاشيته وطرقه التي عليها الهُدب.

[49]- العَصْب: ضرب من برود اليمن المخططة.

[50]- التوحيدي، أبو حيان: مثالب الوزيرين، ص: 134.

[51]- المصدر السابق: ص: 103.

[52]- المصدر السابق: ص: 113.

والملحوظ أنَّ التوحيدي قد تجاوز حدَّ الاعتدال في علاقته مع خصومه، فوقع في السخرية العنيفة والانتقاد التقبيحي، فصوَّر ابن عباد تصويرًا بشعًا حاقدًا جاوز السخرية إلى التهكم؛ ووصل به إلى مرتبة الهجاء والذم مع الإشارة إلى فساد أخلاقه، وبذا يقترب من أستاذه الجاحظ في رسالته التربيع والتدوير.

وعندما طُلِبَ مِنْه وصف معاملة الصاحب له قال: "إنّي رجل مظلوم من جهتِه، وعاتبٌ عليه في معاملتي، وشديدُ الغيظ لحرماني، وإنْ وصفته أربيت [زدتُ] منتصفًا، وانتصَفْتُ منْهُ مُسْرِفًا"[53]، فالتهكم لايقتصر على وصف القبح وصفًا ساخرًا بل يتجاوزُهُ إلى تقبيحِ ما حَسُنَ في الموصوف، وهذا واضح في كلام التوحيدي، "والباعث على التهكم إمَّا أن يكون تشفيًا أو أن يكونَ طَبْعًا، فإنْ كان تشفيًا فالتشاحن والبغضاءُ سببُهُ، وإن كان طَبْعًا فالكِبْرُ والغرورُ علّته، والأمران كِلاهما موجودٌ عند صاحب مثالب الوزيرين"[54].

فانفعالات التوحيدي من الصاحب بن عباد وابن العميد هنا انفعالات منفرة لا تجنح بصاحبها إلى انتزاع صفات الحسن من الخصم وحسب؛ بل تقود إلى تصوير الخصم على نحو مسخي أو كاريكاتيري؛ أي تجريد الشيء أو الطرف المكروه من خصائصه الجمالية، ورؤيته بمنظار المفارقة الضاحكة حينًا، وحينًا بمنظار التناقضات الساخرة، حيث يقوم المرء بتجريد الموضوع من خصائصه وسماته الجمالية الإيجابية خاصة المحاسن، ليسقط على الموضوع بديلًا عنها كل مكروه ومفجوع بدرجة من الدرجات، وهو هنا لا يفهم الموضوع من الناحية الجمالية فهمًا مقلوبًا فحسب، وإنَّما يقلب فقط الخصائص الإيجابية، ويحل محلها قيمًا سلبية بطريقة من الطرق تتناسب وشخصيته، وعقليته، وثقافته، ولكنها على أيّ حال عملية تشويه للخصائص الجمالية للموضوع، لتبدو متناقضة مضطربة قلقة، يقول التوحيدي في الصاحب: "ولكنَّني ابتليتُ به، وكذلك هو ابتلي بي، ورمَاني عن قوسه مُغْرِقًا[55] فأفرَغتُ ماكان عندي على رأسِه مَغيظًا؛ وحرمني فازدَرَيْتُه، وحقَّرني فأَخزيتُه، وخصَّني بالخيبة التي نالت منّي، فخصَصَته بالغيبة التي أحْرقَته، والبادي أظلم، والمنتصِف أعذَر..."[56].

[53]– التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ص: 53/2.

[54]– السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 307–308.

[55]– أغرق في الشيء: تجاوز الحدَّ فيه؛ يقال أغرق النازع في القوس أي استوفى مدها.

[56]– التوحيدي، أبو حيان: مثالب الوزيرين، ص: 86–87، والسيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 123.

الدعابة:

وهي النكتة اللطيفة يتبادلها الناس للإبتسام والضحك، وتقدم بأسلوب فني موجز، من ذلك قول التوحيدي: "قُدِّمَ لأبي العيناءِ يومًا قِدْرٌ، فوجدها كثيرة العِظامِ، فقال: هذه قِدْرٌ أم قبْرٌ؟[57].

ومنها: "سئل أبو عمارة، قاضي الكوفة: أيُّ بنيكَ أَثْقَلُ؟ قال: مافِيهِم بَعْدَ الكبيرِ أثقلُ من الصغيرِ إلاّ الأوسط[58].

ومنها: "رأى فيلسوف مدينة حصينةً بسورٍ مُحْكم، فقال: هذا موضع النساء لا موضع الرجال"[59].

والملحوظ هنا أنَّ التوحيدي يستخدم الإيجاز في كلامه، وهو الذي نقل عن أشياخ العلم في حدِّ الإيجاز، فقال: "... هو تقليل الكلام من غير إخلالٍ، كأنَّه إقْلالٌ بلا إخْلال"[60].

المباغتة:

ويقصد بها أنَّ موضوع الضحك (مرئيًا كان أم مسموعًا أم مشتركًا) يقود تفكيرَ المتابِع بشِدَّةٍ متباينةِ الدرجة، من خلال تسلسله وطريقَتِهِ إلى توقُّعِ أو إطلاقِ حُكْمٍ قَبْليٍّ على ما سيحدثُ، بيدَ أن الحدثَ أو المحدِّثَ ينعطفُ إلى اتجاه آخر تمامًا للاتجاه الذي قاد المتابعَ إليه، في لحظةٍ أو نُقْطَةٍ مناسبةٍ عندها يحدث تجاذُبُ القوَّتين في طلب السَّبب كما يقول التوحيدي[61]، من ذلك: "ضمَّ عثمان بن رواح السفر ورفيقًا له، فلما كانا معًا قال له الرفيق: امض إلى السوق فاشتر لنا لحمًا، قال: والله ما أَقْدِر! قال: فمضى الرفيق واشترى اللحم، ثم قال لعثمان: الآن فاطبخ القدر، قال: والله ما أقدر، فطبخها الرفيق. ثم قال له الرفيق: قم الآن فأثرد، قال: والله إني لأعجز عن ذلك! فثرد الرفيق، ثم قال: قمْ الآن فكُلْ، فقال عثمان: لقد استحييت من كثرة خلافي عليك، ولولا ذلك ما فعلت!"[62].

ومنها: "سمع أعرابي دابَّة تعتلف في جوف الليل، فقال: "إني لأراك تسهرين في مالي والناس نيام، والله لا تصبحين عندي وباعها"[63].

ومنها: "قال ابن الجصَّاص الصوفي: دخلت على أحمد بن روح الأهوازي فقال: ما تقول في صَحفةِ أَرُزٍ مطبوخٍ، فيها نهرٌ من سمْنٍ، على حافتيها كُثبانٌ من السكَّرِ

---

[57] التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ص: 69/3.

[58] المصدر نفسه: ص: 56/2.

[59] التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، ص: 83/1.

[60] المصدر نفسه: ص: 145/1.

[61] انظر: التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، ص: 274؛ والسيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 300.

[62] التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ص: 40/3.

[63] المصدر نفسه: ص: 33/3.

المنْخُول؟ فدمعتْ عيناي، فقال: مَالكَ؟ قلتُ: أبكي شوقًا إليه، جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالغواصة والرَّدَّادَتَين، فقال لي: ما الغواصةُ والرَّدَّادتانِ؟ قلتُ: الغواصة: الإبهامُ، والرَّدَّادتان: السبابةُ والوسطى..."[64].

التخلص من المواقف المحرجة:

ومن مظاهر فن الاضحاك والتقبيح التخلص من المواقف المحرجة، والقدرة على الرد بالمِثل فيجابه الشخص المتهكم بعكس ماكان يتوقعه، ويكون الجواب مسكتًا وأكثر إضحاكًا، كونه اعتمد على سرعة الخاطر مما يبعث على الضحك، والتوحيدي امتلك بذكائه فن سياسة التخلص من المواقف المحرجة، من ذلك ما رواه التوحيدي عن الصاحب، يقول: "حضرْتُ مائدةَ الصَّاحبِ، فقُدِّمَتْ، مَضِيرَةٌ، فأمْعَنْتُ فيها، فقال لي: يأبا حيان، إنَّها تضُرُّ بالمشايخ! فقلتُ: لإنْ رَأى الصَّاحِبُ أنْ يدَعَ التَّطبُّب على طعامِهِ فعَلَ. فكأنِّي ألقَمْتُهُ حَجَرًا، وَخَجِلَ واستحيا، ولم ينطِقْ إلى أنْ فَرَغْنَا"[65].

ومن ذلك أيضًا قول التوحيدي: "قال لي الصاحب يومًا: ياأبا حيَّان مَنْ كنَّاكَ أبا حيَّان؟ قُلْتُ: أجَلُّ الناسِ في زّمانِهِ، وأكْبَرُهُم في وَقتِهِ، قال: منْ هوَ؟ ويلَك! قُلْتَ: أنْتَ؟ قال: ومتى كان ذلك؟ قُلْتُ: حينَ قُلْتَ يا أبا حيان! فأضْربَ عَنْ هذا الحديثِ وأخذَ في غَيرِهِ على كَرَاهةٍ ظهَرَتْ عليهِ"[66]. وواضح أنَّ التوحيدي لم يكن يستطيع كبح جُمُوح لِسَانِهِ.

الغفلة والتغافل:

وهي تصرفات تتصف بالغباء والخطأ في الحكم، والمتغافل من يدّعي الغفلة لإضحاك الآخرين، وهو شبيه بتجاهل العارف أو سوق المعلوم مساق المجهول، من ذلك سخرية التوحيدي من رجل فقيه يدّعي العلم وهو جاهل، يقول: "سألني بعض الفقهاء: أين مولودك؟ وهو يريد أن يعلم أينَ ولدت، فقلت: مالي مولود، فقال: سبحان الله، وزاد تعجبه، فقلت: لعلك تسألني عن مكاني الذي ولدت فيه؟ قال: نعم، فقلت: فهَّلا قلت: أين مولدك؟ قال: فخجل هو للحاضرين، وذاك أردت؛ ليكون خجله باعثًا على الأدب أو على إكرام الأديب"[67]. وواضح أنَّ سخرية التوحيدي من الفقيه هنا لإضحاك الآخرين ووضع الخصم في موقف محرج.

---

[64]– المصدر نفسه: ص:3/77.

[65]– الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، ص: 7/15.

[66]– التوحيدي، أبو حيان: مثالب الوزيرين، ص:307.

[67]– التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، ص: 102/2.

المبالغة والمغالاة:

وهو الوصف الذي يجاوز الحدَّ المقبول والمألوف، وعلى الرُّغم من أنّه ليس ثمَّةَ معيارٌ أو مُستندٌ لتحديد اتجاه المبالغة في حُسْنٍ أو قُبْحٍ أو خير أو شَرٍّ، فإنَّ الأغلب الأعمَّ يدورُ حول التَّندُّرِ بالقبحِ وذَمِّه واستنكارِهِ بطريقةٍ سلبيةٍ انفعاليةٍ، ويكون الضحك معها بمثابة التَّبرُّء منه والتشفي من صاحبه، على أنَّ المقصود من القُبْح لا ضدَّ الجمال وحسب، وإنَّما كلُّ ما يُسْتَقبَحُ في المرء من قول أو شكلٍ أو فعلٍ[68]، من ذلك تهكم التوحيدي بالبخل، فروى سؤال الرشيد لِلْجمَّازِ، كيف مائدةُ محمَّدِ بنِ يحيى البرمكي؟ فقال: "شِبْرٌ في شِبْرٍ، وصَحْفَتُه منْ قِشْرِ الخَشخاشِ[69]، وبين الرغيف والرغيف مَضْرِبُ كُرَةٍ، وبَيْنَ اللَّون واللَّونِ فَتْرَةُ نَبِيٍّ. قال: فمن يحضُرُها؟ قال: الكِرامُ الكاتبون".

وقد قدَّم التوحيدي الكثير من صور تقبيح البخل والبخلاء، ووصل بوصفه هذا حدَّ التطرف والمبالغة والمغالاة، سائرًا سير أستاذه الجاحظ[70]، من ذلك ماراواه التوحيدي بقوله: "قيل لِسَمرقَندِيٍّ: ماحدُّ الشِّبَعِ؟ قال: إذا جَحَظتْ عيناكَ، وبَكَمَ لِسانُكَ، وثَقُلتْ حركاتُكَ، وارْجَحنَّ عقْلُكَ فأنتَ في أوائل الشِّبَعِ، قيل: إذا كان هذا أوَّلَهُ، فما آخرُهُ؟ قال: أن تَتْشَقَّ نصْفين[71]". ومنها أيضًا: "قيل لبخيلٍ: ما حدُّ الشِّبَع؟ قال: الشبعُ حرامٌ كُلُّهُ، وإنَّما أحلَّ الله من الأكل ما نفى الخَوَى، وسَكَّنَ الصداعَ، وأمسكَ الرَّمَقَ، وحالَ بينَ الإنسان وبين المرح. وهل هلكَ الناسُ في الدِّينِ والدُّنيا إلا بالشِّبَعِ والتَّضَلُّعِ والبِطْنَةِ والاحتشَاءِ؟"[72].

الخاتمة:

قدَّم التوحيدي فهمًا جماليًا لظاهرة القبح الجمالي وفن الاضحاك يمكن الإفادة منها في علم الجمال المعاصر، ففي ثقافتنا العربية مفومات كثيرة تشكل تيارًا كبيرًا يرسم مفهوم الجمال لدينا، ويحكم نتاج المبدعين العرب المسلمين طوال قرون عدَّة، وهو تيار استوعب ما عند الثقافات الأخرى في القرون الأولى، كالثقافة الهندية، والفارسية، واليونانية، ويشكل الفكر الجمالي العربي تراثًا زاخرًا لا يمكن إغفاله، بل الواجب دراسته والوقوف على مضامينه، وهو ركيزة ننطلق منها، فلا نبدأ من جديد.

ومن هنا فإنَّ دراسة البنية الجمالية عند التوحيدي (القبح الجمالي أنموذجًا) يمكن عدّها صورة عن هذا الفكر الجمالي العربي، فأفكاره الجمالية لا تمثل رؤيته الفردية فقط، وإنَّما

---

[68]- انظر: السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، ص: 303.

[69]- الخشخاش: كلُّ شيءٍ يابسٍ يحكُّ بعضهُ بعضًا، وهو نبْت ثمرته حمراء؛ انظر: لسان العرب مادة: خشش

[70]- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، ص: 33/3.

[71]- المصدر نفسه: ص: 22/3.

[72]- المصدر نفسه: ص: 21/3.

تمثل أبرز المفاهيم الجمالية التي يمكن رصدها في ذلك العصر، إذ إنَّ الفكر الجمالي عند الفرد جزءٌ من الفكر الجمالي السائد في المجتمع، والعلاقة بينهما جدلية قائمة على التأثر والتأثير، ومهمة علم الجمال دراسة انعكاسات الواقع الاجتماعي وتطوراته في الفن، ورصد الوعي الاجتماعي وأسسه الجمالية من خلال الأعمال الفنية، والعمل على تطوير ذلك الوعي وإشاعته بين أفراد المجتمع لإغناء الشخصية الإنسانية، وتحسين علاقاتها بالواقع.

ومن البدهي القول: إنَّ البنية الجمالية عند التوحيدي لم تكن معزولة عن فكره بشكل عام، بل هي نتيجة له، ومن خلال هذه النتيجة يمكننا تعرّف إلى المقدمات التي ولَّدتها، ولذلك فإنَّ دراسة البنية الجمالية تقتضي عدم إهمال هذه المقدمات التي أسهمت في تكوينها، ذلك أنَّ العلاقة جدلية بين مفهومات المعرفة والجمال والأدب، وهي علاقة تقوم على الوجود الإنساني في إطار الواقع الاجتماعي الثقافي، فوجود هذه المفهومات مرتبط بوجود المجتمع، والحديث عن علم الجمال يعني الكلام على العلاقات الإنسانية الجمالية مع الواقع، ومن ثمَّ فدراسة مفهوم الجمال في مجتمع ما مرتبط ارتباطًا وثيقًا بدراسة التطور الاجتماعي التاريخي لهذا المجتمع.

فالبنية الجمالية عند التوحيدي هي نتيجة ثقافته العالمة وغير العالمة ضمن الواقع الاجتماعي المعيش، فقد استطاع التوحيدي معرفة الواقع الثقافي الاجتماعي والسياسي، وتفاعل معه وحاول التأثير فيه، فصدر عن ثقافة اجتماعية أصيلة، وسدّ هوة بين ثقافته وثقافة مجتمعه، ولم يقم بإسقاط ثقافة مخالفة.

وقضية القبح الجمالي التي تناولناها في هذه الدراسة تشير إلى البنية الجمالية عند التوحيدي، وتعدُّ في صلب علم الجمال، لأنَّها قضية فلسفية بما تؤديه من وظائف معرفية تزوّد المتلقي بالثقافة اللازمة لبناء عقله، ونقله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بأسلوب جمالي وفني.

إنَّ سعي هذا البحث إلى محاولة تبيان البنية الجمالية الناظمة للفكر الجمالي عند التوحيدي (القبح الجمالي أنموذجًا) تظل في حدود المحاولة دون الجزم بنجاحها، وهو ماجعلها تحصر اهتمامها بها ولا تعنى كثيرًا بالعلائق والتأثيرات الثقافية الخارجية، أو بمقاربة فكر التوحيدي بسواه قديمًا وحديثًا[73]، وهي محاولة إلى تأصيل الأطروحات الجمالية التي قال بها التوحيدي، بمعنى أنَّ الاهتمام بالبنية الجمالية عند التوحيدي هو اهتمام بالفكر الجمالي الإسلامي في منظومته الجمالية، وذلك من دون أن يقع البحث في الإحاطة والشمول، وهو ما يعجز عنه بحث واحد، ويحتاج إلى تضافر البحوث العلمية من أجل إعطاء صورة شاملة عن هذا الفكر.

[73]– انظر: كليب، سعد الدين: البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، وزارة الثقافة، دمشق، 1997، المقدمة.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم، زكريا: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب 35.

2- أفاية، محمد نور الدين: الاهتمام بالجمال عند التوحيدي، مجلة فصول، مجلد(15)، عدد(1)، 1996.

3- البهنسي، عفيف: الفكر الجمالي عند التوحيدي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997.

4- التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أميم وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

5- التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1964.

6- التوحيدي، أبو حيان: الصداقة والصديق، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996.

7- التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، محقق ومشروح بقلم: حسن السندوبي، ط2، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992.

8- التوحيدي، أبو حيان: الهوامل والشوامل، تحقيق: أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1951.

9- التوحيدي، أبو حيان: مثالب الوزيرين، حققه وعلق على حواشيه: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، 1992.

10- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: فقه اللغة وأسرار العربية، شرحه وقدَّم له ووضع فهارسه: ياسين الأيوبي، ط2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2000.

11- الجاحظ، البخلاء: تحقيق: طه الحاجري، ط5، دار المعارف، القاهرة، سلسلة ذخائر العرب 23، 1990.

12- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق: أحمد فريد الرفاعي، القاهرة، 1936.

13- الخضيري، زينب محمود: أبو حيان التوحيدي والبحث عن السعادة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996.

14– زيدان، يوسف: هل كان التوحيدي صوفيًا أم فيلسوفًا؟، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996.
15– السيد أحمد، عزت: تمهيد في علم الجمال، منشورات جامعة تشرين،2007–2008.
16– السيد أحمد، عزت: من رسائل أبي حيان التوحيدي، المختار من التراث العربي، وزارة الثقافة، دمشق، 2001.
17– الصديق، حسين: فلسفة الجمال ومسائل الفن، دار القلم العربي ودار الرفاعي، حلب، 2003.
18– عبد الحميد، شاكر: الفكاهة والضحك، سلسلة عالم المعرفة 289، الكويت، 2003.
19– العراقي، عاطف: مفهوم الإنسان عند أبي حيان التوحيدي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996.
20– عصفور، جابر: الرغبة المكتسبة للكتابة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد(15)، العدد(1)، 1996.
21– كليب، سعد الدين: البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، وزارة الثقافة، دمشق، 1997.
22– الكيلاني، إبراهيم: رسائل أبي حيان التوحيدي، دار طلاس، دمشق، 1985.
23– ميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبي ريده، القاهرة، 1941.
24– اليافي، عبد الكريم: دراسات فنية في الأدب العربي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1996.